اسم الدرس : تفسير سورة الرعد (٥) | الآيات [٢٦ : ٣١]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نستكمل بإذن الله تعالى مجالس وقفات مع سورة الرعد أسأل الله أن يجعل هذه المجالس خالصة لوجهه -سبحانه وتعالى- وأساله -سبحانه وتعالى- بفضله وكرمه ومنته أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.

وأُذكر نفسي وإياكم ألا يفقد الإنسان القيمة العظمى لهذه المجالس، وأن يستحضر دائمًا أن فهم آية أو آيتين من كتاب الله -سبحانه وتعالى- خير له من الدنيا و ما فيها، وأن مثل هذه المجالس يحبها الله -سبحانه وتعالى- إذا كانت خالصة لوجهه وتَحُفّها الملائكة، وتغشاها السكينة والرحمة، ويذكرها الله -سبحانه وتعالى- فيمن عنده.

أسأل الله أن يرزقنا الإخلاص والسداد والتوفيق.

من المهم أن يستحضر الإنسان قيمة أن يتعلم معنى آية من كتاب الله -سبحانه وتعالى-، هذا الوحي العظيم الذي أنزله الله -سبحانه وتعالى- وخصَّ به هذه الأمة؛ أمة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

نستكمل وقفات مع سورة الرعد، كنا قد توقفنا عند الآية الخامسة والعشرين.

تكلمنا عن شرح المثل المائي والناري، وتكلمنا عن الصراع بين الحق والباطل، على مستوى العقائد وعلى مستوى الأرض والحركة، وقلنا أن الحق دائمًا ينتصر في مستوى طرح العقائد والأفكار، لكن الأيام دُوَل {وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ} [آل عمران: ١٤٠] على مستوى الأرض والحركة.

أنتج هذا الصراع أُناسًا يؤمنون بالوحي، وأُناسًا يعرضون عنه، وسمى الله -سبحانه وتعالى- من يؤمن بهذا الوحي، ويتخذه نورًا في حياته؛ سماه الله بصيرًا عكس كلمة أعمى، الذي يؤمن بما أنزل الله -سبحانه وتعالى- على نبيه -صلى الله عليه وسلم- فهو بصير، والذي كفر بهذا الوحي، سماه الله أعمى في هذه السورة.

ثم بين الله -سبحانه وتعالى- أن لهذا الإيمان الذي آمنت أنت به، له لوازم على الأرض

{أَوَمَن كَانَ مَيتا فَأَحيَينَٰهُ وَجَعَلنَا لَهُۥ نُورا يَمشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ} [الأنعام : ١٢٢]

إذًا الإيمان حين يستقر في القلب لابد أن ينتج عنه عمل، الفصل بين الإيمان والعمل لم يكن معروفا عند سلفنا الصالح.

تكلم الله –سبحانه وتعالى– وأخبرنا في هذه السورة عن مواصفات أهل الإيمان، فذكر الله –سبحانه وتعالى– أوصافا عدة، ثم ختم أوصاف أهل الإيمان بالعاقبة؛ بأن لهم الجنة.

وإذا كان الله –سبحانه وتعالى– ذكر مواصفات أهل الإيمان في ثلاث آيات؛ فقد أجمل مواصفات أهل الباطل –الذين اختاروا الباطل– وعاقبتهم في آية واحدة فقال الله –سبحانه وتعالى– عن هؤلاء {وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهدَ ٱللَّهِ مِن بَعدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفسِدُونَ فِى ٱلأَرضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعنَةُ وَلَهُم سُوٓءُ ٱلدَّارِ} [الرعد: ٢٥]

تكلمنا عن مجمل هذه الأمور الثلاثة، والفساد الذي يحدث في الأرض بسبب هذه الأمور، فقال الله –سبحانه وتعالى– في ختام هذه الآية؛ أن عاقبة هؤلاء {لَهُمُ اللعْنَةُ} قيل في الدنيا، {وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار} يوم القيامة.

حينما يسمع الإنسان عاقبة المؤمنين المتقين، وعاقبة أهل الباطل من الفجار والكافرين والفاسقين، أن هؤلاء الفجار والفاسقين لَهُمُ اللعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار؛ حينما يسمع كلمة {سُوءُ الدَّارِّ} قد يحدث عنده تعارض حينما يرى أن أهل الباطل والكفار فى زينة الدنيا، ويراهم منعمين، ويراهم في ترف وزينة، فقد يصيبه –في داخله– بعض التناقض، فيتساءل؛ كيف يكون لهم سوء الدار، وكيف أن مَن يعرض عن ذكر ربه له معيشة ضنكًا؟!

وهذه من الأسئلة التي تدور على أذهان كثير من الشباب، حتى وإن لم يتكلموا بها، خاصة مَن يسافر لبلاد الغرب فينبهر بالتقدم المادي، ثم يتساءل؛ أنتم تقولون أنهم على باطل، فكيف يكونون على باطل وعندهم تقدم مادي؟!

وهذا يحدث عنده تلقائيا دون أن يشعر، ربط بين كونه عنده تقدم دنيوي؛ وكونه على الحق؛ أي: بما أنه في تقدم دنيوي فلا بد أنه على الحق، يشعر بهذا الترابط رغما عنه.

فحين مكث سيدنا أيوب –عليه السلام– في بلائه ثمانية عشر عامًا؛ ورفضه القريب والبعيد، ولم يبقَ معه إلا صاحبان، فقال أحدهما للآخر –لما وجد أن البلاء مستمر يحدث للإنسان ربط تلقائي –وهذا

خطأ- لما وجده مستمر في البلاء، فقال: "ما أظن إلا أن أيوب أذنب ذنبا لم يذنبه أحد من العالمين"، هو ربط ربطًا مباشرًا بين الابتلاء والذنوب، وهذا قد يحدث، لكن ليست قاعدة مطردة، لأن المؤمن قد يُبتلَى، وأشد الناس بلاءً الأنبياء.

حدث هذا الربط أيضًا عند بعض الصحابة حينما دخلوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- ووجدوا الحصير قد أثَّر في جنبه الشريف -صلى الله عليه وسلم- فقالوا متعجبين: يا رسول الله تنام على الحصير وهكذا يؤثر في جنبك الشريف -صلى الله عليه وسلم- وملوك كسرى وقيصر يتنعمون في الدنيا؟!

هم أرادوا الربط بين بما أننا نحن على الحق، إذًا تكون عندنا القصور، وهم على الباطل فيكونون هم الفقراء.

هذا الربط حين يكون مطردًا يكون فيه خلل،

هذا ليس مطردًا عندنا في الشريعة.

{فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ} أي ضيق عليه رزقه {فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦} [الفجر ١٥-١٦]

كَلَّا؛ هذا تفكيرٌ خاطئ.

فحين يسمع الإنسان في تلك الآيات من سورة الرعد {أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ} يتعجب؛ وكيف تكون لهم الدنيا، وينعمون فيها! فيقول الله -سبحانه وتعالى- بعدها مصححًا لهذه الأفكار - وممن ربط هذا الربط ابن عطية وابن عاشور- قال؛ يقول الله -سبحانه وتعالى- : {ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ} [الرعد٢٦]

أي الله وحده يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

قال بعض العلماء إن الأصل أن تكون الجملة فعلية؛ يبسط الله الرزق لمن يشاء ويقدر، لكن عندما جعل المبتدأ اسما وأصبحت جملة اسمية؛ بعض العلماء مثل الزمخشري قال: "هذا يفيد التخصيص" أي أن الله وحده -سبحانه وتعالى- فقط يفعل ذلك، والبعض قال: يفيد التأكيد وليس التخصيص، أيًّا كان الخلاف بين أهل العلم فإن هنا معنى زائد؛ أن الله -سبحانه وتعالى- يؤكد علينا -وكما قال الزمخشري

أنه يوجد هنا تخصيص- أنَّ ما يحدث، كل ما يحدث، هو بتقدير من الله -سبحانه وتعالى-؛ بسط الرزق، الانفتاح في الرزق، أو تضييق الأرزاق بيده -سبحانه وتعالى- ولحكمة يعلمها هو سبحانه وتعالى.

هناك سنن كثيرة ذُكرت في القرآن والسنة؛ كيف توزع الدنيا؟ أي لمن تُعطى الدنيا؟ ولمن يُبسَط الرزق؟ وعلى من يُضيق؟

ليست هناك قاعدة واحدة!

مشكلة الإنسان أنه يريد دائمًا اختزال الموضوع المعقد في قاعدة واحدة.

فعندما تكثر عليه من السنن، وتخبره أن هذه السنن متداخلة متراكبة وتحدث بصورة مجملة، وهناك حِكَم...فيبدأ يشرد منك؛ هو يريد شيئًا واحدًا فقط؛ نحن أهل الحق فلا بد أن تكون معنا الدنيا، وهم أهل الباطل فيُهزمون ويغلبون.

لذلك عندما حدثت هزيمة أحد، هم يريدون أن يسيروا على قاعدة واحدة فقط؛ نحن مسلمون إذًا لابد أن ننتصر -كما حدث في بدر- لذلك عندما حدثت الهزيمة قالوا {أَنَّىٰ هَٰذَا} كيف نُهزَم ونغلب؟! نعم، لأن هناك سنن أخرى.

هذه مشكلة كيف لا ينصرنا الله وكيف الكفار متقدمون؟!

هناك سنن كثيرة متداخلة، فقال الله -سبحانه وتعالى- {ٱللَّهُ} وحده {يَبسُطُ} بصيغة المضارعة {ٱلرِّزقَ لِمَن يَشَآءُ} **الأمر مقيَّد بالمشيئة**؛ لذلك يقولون إن آية سورة الإسراء مُقَيِّدة {مَّن كَانَ يريدُ العَاجِّلَةَ عَجَّلْنا لهُ فيهَا مَا نشَاءُ لِمن نريدُ ثُمَّ جَعَلْنا لهُ جَهَنمَ يصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورا} [الإسراء ١٨]

مُقَيِّدة لكل آيات توزيع الدنيا على البشر في القرآن، فكل الآيات التي ذكر فيها الإعطاء في الدنيا أو التضييق في الدنيا مُقَيَّدة بآية الإسراء {مَا نشَاءُ لِمن نريدُ}.

{مَّن كَانَ يريدُ العَاجِّلَةَ عَجَّلْنا لهُ فيهَا مَا نشَاءُ} أي الجزء

{لِمن نريدُ} وليس لكل الأشخاص.

قد يكون كافرًا، ويريد العاجلة، فيقول: أين الدنيا؟! ألستم تقولون إن الدنيا عندكم للكافر؟!

هو يريد الدنيا فيقول: إن كانت للمؤمنين أسلمنا، وإن كانت للكافرين كفرنا –والعياذ بالله– ويبحث عن الدنيا.

نرد عليه بقولنا: الدنيا مُقيَّدة بمشيئة الله –سبحانه وتعالى– فقد تكفر ولا تنل شيئًا من الدنيا، وقد تؤمن ويُضيَّق عليك الرزق.

فالأمر مُقيَّدٌ بمشيئة الله –سبحانه وتعالى– لحكَمٍ لا يعلمها إلا هو، قد تظهر بعضها لنا.

{ٱللَّهُ يَبسُطُ ٱلرِّزقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقدِرُ}

قال بعض المفسرين: إن هذه السُّنة في هذه الآية خطاب للمؤمنين، ردًا على التساؤلات التي تحدث في عقول المؤمنين عندما يسمعون أن الكفار {لَهُمُ اللعْنةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}، فيخاطبهم الله –سبحانه وتعالى– ليُبصَّرهم.

أما الكافر فلن يستفيد شيئًا من هذه القواعد، فتكلم الله عنه –سبحانه وتعالى– بضمير الغائب {وَفَرِحُوا بِٱلحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا}

أي وأما الكفار الذين لا يفهمون مثل هذه الأمور؛ هؤلاء مشغولون، فرحون، سعداء، يلعبون، مشغولون بزينة الحياة الدنيا –لا ينشغل أصلًا بوجود الإله، وبتقدير الأرزاق وبالبعث، وأنه سيُسأل عن هذه الأمور أو بشكر هذه النعمة، هو الفرح الذي يؤدي إلى البطر.

فهنا من حكمة الكلام عن الكفار بضمير الغائب {وَفَرِحُوا} أي هم فرحوا، {بِٱلحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا} أنهم لا يفهمون مثل هذه الأمور. فالمؤمن المقبل يحتاج أن تُفْهِمه، وأن تُبصِّره، وأن تُبيِّن له سنن الله –سبحانه وتعالى–، أما المعرض المشغول بزينة الدنيا؛ لن يستفيد شيئًا.

{وَفَرِحُوا بِٱلحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا}

هل لا يحق لنا أن نفرح بالدنيا؟!

إذا نجح أحد أو تفوَّق أو تزوج أو رُزِق بسيارة جديدة؛ من الطبيعي أن يفرح، المقصود هنا الفرح الذي يؤدي إلى البطر والكبر ونسيان حق الله –سبحانه وتعالى– وأن يظن أنه فعل هذا بقدرته.

المؤمن يأكل الطعام ويقول (الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة)[١] ، المؤمن ينسب الفضل والخير كله لله –سبحانه وتعالى– (والخير كله بيديك والشر ليس إليك ...)[٢]

لكن هؤلاء فرحوا بالدنيا وظنوا أنهم قادرون عليها، كما في ختام سورة غافر {فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ} [غافر٨٣]

وحبذا لو رجعتم لتفسير هذه الآية من سورة غافر، فقد أبدع المفسرون في تفسيرها؛ كيف ظن بما عنده من العلم أنه قادر على الأرض، وعلى أن يسخر هذه الطبيعة له، وأنه لن يحتاج إلى الإله! {وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ} [يونس٢٤] هذا هو الفرح المذموم بالحياة الدنيا.

وأعلى أنواع الفرح الذي أمرنا به في القرآن هو الفرح بالقرآن {قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ} [يونس ٥٨]

{قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ} أي بالإسلام {وَبِرَحۡمَتِهِۦ} أي بالقرآن، على قول جمهور المفسرين {قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ} أي أن الفرح الحقيقي يكون بنعمة الإسلام ونعمة القرآن.

أسأل الله أن يديم علينا هذه النعم.

{وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا} وكيف يفرحون بالحياة الدنيا وينسون الآخرة؟!

---

[١] [عن معاذ بن أنس:] مَنْ أَكَلَ طعامًا فقالَ: (الحمدُ للهِ الَّذي أطعَمَني هذا ورزَقنيه مِنْ غيرِ حَولٍ مِنّي ولا قوةٍ)؛ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِن ذنبِه. ومَنْ لَبِسَ ثوبًا فقالَ: (الحمدُ للهِ الَّذي كَسانِي هذا ورزقنيه مِن غيرِ حولٍ مِنّي ولا قوَّةٍ)؛ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنبِهِ...
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترغيب ٢٠٤٢ • حسن لغيره • أخرجه أبو داود (٤٠٢٣) باختلاف يسير، والترمذي (٣٤٥٨)، وابن ماجه (٣٢٨٥)، وأحمد (١٥٦٣٢) مختصراً.

[٢] [عن علي بن أبي طالب:] أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ قالَ وجَّهتُ وجهيَ للَّذي فطرَ السَّماواتِ والأرضَ حنيفًا وما أنا منَ المشركينَ إنَّ صلاتي ونسُكي ومحيايَ ومماتي للَّهِ ربِّ العالمينَ لا شريكَ لَه وبذلِك أمرتُ وأنا أولُ المسلمينَ اللَّهمَّ أنتَ الملِكُ لا إلَه إلَّا أنتَ أنتَ ربِّي وأنا عبدُك ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنَّهُ لا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ واهدِني لأحسنِ الأخلاقِ لا يَهدي لأحسنِها إلَّا أنتَ واصرف عنِّي سيِّئَها لا يصرفُ عنِّي سيِّئَها إلَّا أنتَ لبيكَ وسعديكَ والخيرُ كلُّه في يديكَ والشر ليس إليكَ أنا بِكَ وإليكَ تبارَكتَ وتعاليتَ أستغفرُك وأتوبُ إليكَ فإذا رَكعَ قالَ اللَّهمَّ لَكَ رَكعتُ وبِكَ آمنتُ ولَكَ أسلمتُ خشعَ لَكَ سمعي وبصري وعظامي وعصبي فإذا رفعَ قالَ اللَّهمَّ ربَّنا لَكَ الحمدُ ملءَ السَّماءِ وَ ملءَ الأرضِ وملءَ ما بينَهما وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعد فإذا سجدَ قالَ اللَّهمَّ لَكَ سجدتُ وبِكَ آمنتُ ولَكَ أسلمتُ سجدَ وجهيَ للَّذي خلقَه فصوَّرَه وشقَّ سمعَه وبصرَه فتبارَكَ اللَّهُ أحسنُ الخالقينَ ثمَّ يقولُ من آخرِ ما يقولُ بينَ التَّشهدِ والتسليمِ اللَّهمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ وما أسررتُ وما أعلنتُ وما أسرفتُ وما أنتَ أعلمُ بِهِ منِّي أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ لا إلَه إلَّا أنتَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترمذي ٣٤٢٢ • صحيح

{وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا} هنا بصيغة القصر؛ نفي وإثبات، {فِى ٱلۡأَخِرَةِ} [في] البعض يسميها هنا للمقايسة أي أنها تفيد الموازنة بين الاثنين،

{وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِى ٱلۡأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ} أي كزاد الراكب المسافر، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث عبدالله بن مسعود (قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً؟ فقال: ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها)[٣]

انظر إلى حال المسافر الذي وجد ظلًا أثناء الظهيرة، فجلس فيه ثم راح وتركها، لا تراه يبكي هذا الظل عند رحيله، بل تركه بسهولة ويسر وسار في طريقه.

وهكذا تخرج روح المؤمن كالقطرة من فِيِّ السقاء {وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطًا}[النازعات ٢] تنشط للخروج حيث لم تكن متمسكة بالدنيا، وكما قال الله في سورة الروم {وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ}[الروم٤٤] كانت تنتظر الوقت الذي يؤذن لها فيه بالخروج لتعرج إلى الله -سبحانه وتعالى- فتخرج الروح كالقطرة من فِيِّ السقاء لأنها نشيطة.

يقول الله -سبحانه وتعالى- لهؤلاء الذين فرحوا بالدنيا ونسوا الآخرة {وَمَا الحياةُ الدُّنْيا} التي فرحتم بها، {فِي ٱلۡأٓخِرَةِ} أي بالنسبة للآخرة.

أي أن الحياة الدنيا بالنسبة للدنيا فقط هي عظيمة عند الناس، متى تكون الدنيا حقيرة؟ ومتى تكون الدنيا قليلة؟ عندما تقاس بالآخرة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث عن المستورد بن شداد، قال رسول الله ﷺ: (ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع)[٤] .

---

[٣] [عن عبدالله بن مسعود:] نام رسولُ اللهِ ﷺ على حَصيرٍ فقام وقد أَثَّرَ في جَنْبِهِ فقُلْنا يا رسولَ اللهِ لو اتَّخَذْنا لك وِطاءً فقال ما لِي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكِبٍ استَظَلَّ تحتَ شجرةٍ، ثم راح وتَرَكَها
الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٣٧٧ • حسن صحيح • أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) واللفظ له، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (٣٧٠٩).

[٤] [عن المستورد بن شداد:] ما مَثَلُ الدُّنيا في الآخرةِ إلّا مَثَلُ ما يجعلُ أحدُكم إصبعَه في اليمِ فلينظُرْ بِمَ يرجِعُ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٣٣٣٢ • صحيح • أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤١٠٨) واللفظ له، وأحمد (١٨٠٠٨)

فإذا أخرجت أصبعك من اليم لا تجد إلا قطرات حول الأصبع، فما الدنيا في الآخرة إلا مثل هذه القطرات التي تعلقت بيدك، لكن إذا أخذت هذه القطرات ووضعتها تحت عدسة مكبرة، وعشت معها، فقد تجد حياة داخل هذه القطرات، لكن هذه القطرات بالنسبة للبحر لا تساوي شيئًا.

متى يشعر الإنسان بحقارة الدنيا؟ حينما يركز على الدار الآخرة.

وتحدثنا سابقًا عن مشهد الدنيا والآخرة، وكأنه أشبه بخط مستقيم طويل، لو افترضنا مثلًا طوله ألف كيلومتر، وأول سنتيمترين منه هي الدنيا، فمن عاش حياته في أول سنتيمترين بهمومه وتفاصيله وعقائده؛ يعيش في ضيق.

لذلك كانت الدنيا سجن المؤمن؛ لأن الدنيا بالنسبة للآخرة لا شيء؛ متاع.

تخيل حياة المؤمن في الدنيا، وحياته في الآخرة، فكانت الدنيا بالنسبة للآخرة عند المؤمن كسجن، حتى وإن كان منعمًا.

ليس معنى أن الدنيا سجن المؤمن أن يستوجب ذلك أن يكون المؤمن مبتلى أو في ضيق، فلقد وسع الله -سبحانه وتعالى- على كثيرٍ من المؤمنين.

وها هو سليمان -عليه السلام- أعطاه الله ما لم يؤت أحدًا من العالمين، عندما طلب ذلك -عليه السلام- {قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ}[ص ٣٥] فأعطاه الله ذلك.

فقد يُوسَّعُ على المؤمن، لكن تظل الدنيا سجنٌ لكل المؤمنين؛ الأغنياء والفقراء.

أما نعيم الآخرة؛ نعيم دائم؛ قرة عين لا تنقطع.

(اللهُمَّ إني أسْألكَ نعِيمًا لاَ يَنْفَد وقُرَّةَ عَيْنٍ لاَ تَنْقَطع، وأسْألُكَ لَذَّةَ النَّظر إلَىٰ وَجْهكَ الكَرِيم)[٥] هذه الأمور ليست في الدنيا، فنعيم الدنيا منغص، منقطع، غير مستمر، ليست فيه رؤية وجه الله -سبحانه وتعالى-.

[٥] [عن عمار بن ياسر:] اللَّهُمَّ بعلمِك الغيبَ وقدرتِك على الخلقِ أحيِني ماكانت الحياةُ خيرًا لي وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيرًا لي اللَّهمَّ إنِّي أسألُك خشيتَك في الغيبِ والشَّهادةِ، وأسألُك كلمةَ الحقِّ في الغضبِ والرِّضى وأسألُك القصدَ في الغِنى والفَقرِ وأسألُك نَعيمًا لا ينفدُ وقرَّةَ عينٍ لا تنقطعُ

{وَفَرِحُوا بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ} فمن أراد أن يعرف قيمة الدنيا، فلينظر إلى الآخرة.

من أراد أن يعرف القيمة الحقيقية للدنيا، فلينظر إلى أول منازل الآخرة، فليبدأ بالقبر، يبدأ بموت الفجأة، ولينظر إلى القبور، ثم يستحضر الآيات والأحاديث التي جاءت في أرض المحشر، والبعث، والميزان والصراط، ويستحضر الجنة والنار، يعرف حينها حقيقة الدنيا.

- ثم قال الله –سبحانه وتعالى– بعد كل هذا التوضيح الذي جاء من أول سورة الرعد، فقد بدأت السورة بأن هناك أناس يعرضون عن الله –سبحانه وتعالى– فأعرض القرآن عنهم، وتكلم عن قدرة الله، وآياته المبثوثة في الكون، فطلبوا آية!

فأخبر الله –سبحانه وتعالى– أن وظيفة النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه منذر وأن لكل قوم هاد.

- ثم استكملت الآيات وأعرضت عنهم، وبينت قدرة الله –سبحانه وتعالى– لكن جاء التركيز على وصف العلم أكثر، ففي البداية كانت القدرة والقوة والإرادة.

بعد ذلك جاء وصف العلم، ثم بين الله –سبحانه وتعالى– بعد ذلك عدم نفع الشركاء، وأنهم لا ينفعونهم شيئًا، وأنهم كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، وشرحنا ذلك بالتفصيل.

- ثم بين الله –سبحانه وتعالى– أن هؤلاء المعرضين عن كتاب الله تعالى لن يكتفوا بالإعراض، بل سيحاربون أهل الإيمان وسيحدث الصراع، وتكلمنا عن هذا في المثل.

- ثم بين الله –سبحانه وتعالى– أن هناك أناسٌ يلتزمون بأعمال الإيمان وهناك من يلتزم بأعمال الكفر.

- ثم بعد ذلك، بعد كل هذا التوضيح، يستمر الكفار في طلب الآية الحسية المادية، {ويقول} – بصيغة المضارعة– ويعرضون عن القرآن.

وأسألُك الرِّضى بعدَ القضاءِ وأسألك بَردَ العَيشِ بعدَ الموتِ وأسألُك لَذَّةَ النَّظرِ إلى وجهِك الكريمِ والشَّوقَ إلى لقائِك في غيرِ ضرّاءَ مضرَّةٍ ولا فتنةٍ مضلَّةٍ اللَّهمَّ: زيِّنّا بزينةِ الإيمانِ واجعَلنا هداةً مُهْتدينَ

الألباني (ت ١٤٢٠)، شرح الطحاوية ١٠٠ • صحيح • أخرجه النسائي (١٣٠٥)، وأحمد (١٨٣٥١) باختلاف يسير.

● إذًا بدأت السورة بالإعراض عن القرآن، وذكرت في منتصف السورة أنهم يطلبون آية ويعرضون عن القرآن، ثم كررت السورة أنهم في قمة الإعراض عن القرآن، يرفضون القرآن كآية رفضًا تامًا، لا يطلبون إلا آية حسية!

فقال الله -سبحانه وتعالى- {وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَة مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ} [الرعد ٢٧]

{وَيَقُولُ الذَّينَ كَفَرُوا} أي وبعد كل هذا التوضيح يستمر الكفار في هذا الطلب، {وَيَقُولُ} -بصيغة المضارعة- {لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَة مِّن رَّبِّهِۦۚ} أي آية حسية، فقال الله للنبي -صلى الله عليه وسلم- {قُل} أي قل لهم يا محمد -بما أننا وصلنا لهذا الأمر من التوضيح {إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ}، حقًا من يضل بعد كل هذه الآيات المبثوثة في الكون، وهذه الآيات المتلوَّة عليكم في القرآن؛ حقًا الله يضل من يشاء، لأننا لا نستطيع أن نبيِّن أوسع من ذلك.

وقد تكلمت قبل ذلك أن كثيرًا من ضلال الناس ليس بسبب نقص الآيات أو عدم وضوح الآيات؛ إنما بسبب زيغٍ في قلبه؛ هو يريد الفجور {بلۡ يرِيدُ الۡإِنسَانُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُ}[القيامة ٥] هو يحب الضلال، لا يريد أن ينيب {وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ}.

وأنت تستفتح القرآن تقول يارب {اهۡدِنَا الصِّرَاطَ المسۡتَقِيمَ}[الفاتحة ٦]، أريد أن أصل إليك يا ربي، وأن أسير على صراط واحد ألتزم به.

الذي لا يريد صراطًا، ولا يريد أن يتكلف بتكاليف، ولا يريد أن يلتزم بالتزامات، ولا يريد أن يصل إلى الله؛ لن ينفعه القرآن، بل سيشعر أن القرآن يحاصره، ويضيق عليه، ويكون عليه عمى -عياذًا بالله- فهؤلاء حينما استمعوا للقرآن، ووجدوا أن القرآن فعلا فيه آيات تدل على أنه من عند الله، والدليل أنهم لم يستطيعوا أن يعارضوه، وتحداهم النبي-صلى الله عليه وسلم- أكثر من مرة، وكان الأمر مخزيًا فاضحًا لهم.

أنتم العرب؛ أنتم من أمسكتم بناصية اللغة، فلتتكلموا بمثل هذا القرآن، فلم يستطيعوا،

فكان الأمر فاضحًا لهم، ومخزيًا لهم، وتركوا معارضة القرآن، واستبدلوا ذلك وذهبوا إلى السيوف، وحاربوا النبي -صلى الله عليه وسلم- ومات منهم أناس، فلو كانت المعارضة سهلة عليهم لبذلوها، ولَمَا خسروا أرواحهم ودماءهم، ولَمَا وقعوا في هذا الخزي والعار.

فبالرغم من اعترافهم الضمني بأنه آية -بدليل تعدد التشغيبات على القرآن؛ فمرة سحر، ومرة شعر، ومرة كهانة... تعدد الاتهامات و عدم المعارضة، هذان دليلان واضحان على عجزهم عن المعارضة، وعلى اعترافهم الضمني أنه آية من عند الله.

وبالرغم من اعترافهم الضمني أنه من عند الله، لكنهم رفضوه! لماذا؟! لأنه يحتوي على تكاليف.

وهذا أحد أوجه الربط بين آية {ٱللَّهُ يَبسُطُ ٱلرِّزقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقدِرُ وَفَرِحُوا بِٱلحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا وَمَا ٱلحَيَوٰةُ ٱلدُّنيَا فِى ٱلءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ}

وآية {وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَولَآ أُنزِلَ عَلَيهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ} أي لأنهم فرحوا بالدنيا، ولا يريدون إلا الدنيا، فبالتالي لم يعجبهم القرآن، لأن في القرآن ترك زخرف الدنيا، والإقبال على الآخرة، وأنك ستحاسب عن كل شيء أخذته في هذه الدنيا، فلم يعجبهم القرآن؛ بل قالوا

نريد آية {وَإِذَا تُتلَىٰ عَلَيهِم ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرجُونَ لِقَآءَنَا ٱئتِ بِقُرءَانٍ غَيرِ هَٰذَآ أَو بَدِّلهُ}[يونس ١٥]

فهذا القرآن يحتوي تكاليفًا لا نريدها، لو كانت كلمة لقلناها.

{وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَولَآ أُنزِلَ عَلَيهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ} فبعد هذا الوضوح {قُل إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهدِىٓ إِلَيهِ مَن أَنَابَ}.

أبدع الإمام الطبري في شرح هذه الآية، ومجمل كلامه أن الهداية ليست بيدي، وأن الهداية ليست بالآيات، ولا بوضوح الآيات؛ الهداية من عند الله -سبحانه وتعالى-.

فالأمر في قمة الوضوح؛ لا تستطيعون المعارضة، وتبذلون أرواحكم لمهاجمة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وبالرغم من ذلك تعرضون عن الوحي!

{قُل إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهدِيٓ إِلَيهِ مَن أَنَابَ} يهدي إليه الذي يريد أن يصل إلى الله، من أناب، من بحث، ونظر في هذا الكون وتعجب من القدرة التي أقيم بها هذا الكون، فبحث عن خالقٍ لهذا الكون، بحث في داخل نفسه فوجد فراغًا يريد أن يملأه، وجد جوفًا يريد أن يملأه، فظل يبحث؛ لم يكتفِ بالشهوات، لم يَعِش حياته كالأنعام، هناك أناس اختارت أن تكون كالأنعام! بل على العكس هم أقروا أنهم جزء من الأنعام، هم متطورون عن الأنعام، هم والأنعام شيء واحد، فليس لديه مشكلة أن يكون كالأنعام، أو يتصرف كالأنعام.

لكن الإنسان مختلف، نفخ الله فيه من روحه، وخلقه بيده -سبحانه وتعالى- {قُل إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهدِيٓ إِلَيهِ مَن أَنَابَ}.

● مرة أخرى نقول؛ بدأت السورة بأن هذا الوحي حق، وبالرغم من أنه حق وواضح إلا أن كثيرًا من الناس يعرضون عنه!

فبينت السورة صفات الذي أنزل القرآن، وخاصةً صفات القدرة والعلم، ثم بينت بالرغم من شدة وضوح آيات القرآن؛ إلا أن هناك أناسًا يستمرون في المجادلة، {وَهُم يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلمِحَالِ} [الرعد:١٣] يعرضون عن الله -سبحانه وتعالى-.

إذًا أين يذهبون عندما يعرضون عن الله؟! يذهبون إلى شركاء لا يملكون لهم نفعًا ولا ضرًا {كَبَٰسِطِ كَفَّيهِ إِلَى ٱلمَآءِ لِيَبلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ} [الرعد:١٤]

ثم بين الله -سبحانه وتعالى- تمسك أهل الإيمان بهذا الوحي، حتى وإن ابتُلوا في ذلك و دخلوا فرن الابتلاءات الذي تكلمنا عنه في الصراع.

ثم بعد ذلك يكرر الكفار هذه الكلمة -وهي حجة مشهورة تكلمت عنها وقلت إن القرآن المكي ملئ بالرد على هذه الشبهة- حيث يقول كفار مكة إن السبب الوحيد لعدم إيماننا عدم وجود آية حسية واضحة!

كان تكرار هذه الكلمة في القرآن المكي بصورة واضحة، وكان الرد عليها متنوعًا؛ ففي سورة الرعد كان هناك إعراض عن إجابة هذه الشبهة، وكانت الإجابة بصورة مختلفة تمامًا.

فقال ربنا –سبحانه وتعالى– بعد أن كرروا الطلب –الطلب تكرر هنا مرتين– {وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ}[الرعد:٢٧]

أما أنتم فلم تقتنعوا بالوحي، ولكن هناك طائفة من الناس لم يؤمنوا بالقرآن فقط؛ بل آمنوا به واطمأنوا بهذه الآية اطمئنانًا أعلى من اطمئنانكم بالآيات الحسية!

{ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ}[الرعد ٢٨]

أي فأما الذين آمنوا {وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ} على قول أن ذكر الله هنا هو القرآن –وأنا أميل لهذا القول وهو الأنسب للسياق–.

أي فأما الذين آمنوا –وليس أنتم أيها الكفار– وتطمئن قلوبهم بذكر الله، أي عندما يسمع الوحي لا يحتاج إلى آية غيره، عندما يسمع الوحي يوقن أن هذا الكلام من عند الله، ويوقن أن الله –سبحانه وتعالى– حيٌّ قيوم، وأنه –سبحانه وتعالى– يفعل ما يشاء، وأن الإنسان مكلف بالعبودية لله سبحانه وتعالى.

كل ما يطلبه الناس من الآيات الحسية وجده المؤمن في القرآن وزيادة!

لأنه لم يؤمن فقط، بل {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ}.

الاطمئنان يُقال على الأرض الخفضة أو الاستقرار، أي أنه وصل لحالة من الاستقرار والرضا، لا يريد غير القرآن آية.

هل تحتاج أن ترى آياتٍ حسية مثلًا صاعقة تنزل من السماء على رؤوس الكفار؟! أو تتقطع الأرض؟! أو تتحرك الجبال؟! حتى تزداد يقينًا فيما معك من الوحي؟! لا بل هو مكتفٍ بالوحي، بل الوحي يكلمهم كثيرًا بصيغة الرؤية {أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ...} لأنه يوقن بالوحي.

{وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ}[سورة ق ٤١] هو يتعامل مع الوحي بكل حواسه، وأيقن بهذا القرآن يقينًا تامًا

{ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم}

لم يعد مضطربًا، لم يعد يشك ويقول قد نكون نحن على خطأ، ننتظر آية أخرى لنزداد يقينًا،

لا هو مكتفٍ بالقرآن، بالرغم من وجود آيات حسية أيضا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– وسنتكلم عن ذلك في قول الله –سبحانه وتعالى– {وَلَو أَنَّ قُرءَانا سُيِّرَت بِهِ ٱلجِبَالُ أَو قُطِّعَت بِهِ ٱلأَرضُ أَو كُلِّمَ بِهِ ٱلموتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلأَمرُ جَمِيعًا}.

لكن هو قد اطمأن عندما سمع القرآن {ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكرِ ٱللَّهِ تَطمَئِنُّ ٱلقُلُوبُ} ألا: للتنبيه، أهل الإعراب يقولون إن جملة {ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ ٱللَّهِ} إما أنها مبتدأ، أو بدل من {ويهدى إليه من أناب} فالذين أنابوا هم الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله.

فأيًّا كان؛ {ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ ٱللَّهِ}، {ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ} الاثنان مبتدأ ولهما خبر واحد هو {طُوبَىٰ لَهُم وَحُسنُ مَـَٔابٍ} هذا إعراب، لكن جاءت جملة معترضة قبل أن يأتي الخبر عن الحياة الطيبة التي سيعيشها أهل القرآن في الدنيا وفي الآخرة {طُوبَىٰ لَهُم وَحُسنُ مَـَٔابٍ} أي في الدنيا وفي الآخرة، ويبشرهم الله –سبحانه وتعالى– بطيب الحياة في الدنيا وفي الآخرة، وقبل أن يأتي هذا الخبر قال الله –سبحانه وتعالى–

{أَلَا} التي تأتي للتنبيه، فلابد أن تنتبه لذلك قبل أن تكمل الجملة؛ لن تجد طمأنينة في قلبك إلا من الوحي.

{أَلَا بِذِكرِ ٱللَّهِ} فقط؛ التقديم هنا مهم؛ ألا بذكر الله فقط {تَطمَئِنُّ ٱلقُلُوبُ} ولن تطمئن القلوب بشيء غير الوحي.

مهما كانت الطريقة عقلانية، برهانية، خطابية، كلامية، فلسفية، ... لن تستطيع أن تصل بالقلب إلى حال الطمأنينة.

فكل المعادلات الكلامية، والنقاشات، والجدالات الفلسفية، هذه أحيانًا تصلح لرد شبهة، علاج مرض من الأمراض لديك، هذا لن يكون غذاء أبدًا.

هو أشبه بالكي مثلًا، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: (الشفاء في ثلاثة؛ شربة عسل، وشرطة محجم، وكيَّة نار، وأنهى أمتي عن الكي)[٦]. رواه البخاري

[٦] [عن سعيد بن جبير:] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْهما، قالَ: الشِّفاءُ في ثَلاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وكَيَّةِ نارٍ، وأَنْهى أُمَّتي عَنِ الكَيِّ رَفَعَ الحَدِيثَ ورَواهُ القُتَيْبِيُّ، عن لَيْثٍ، عن مُجاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ، عَنِ النبيِّ ﷺ: في العَسَلِ والحَجْمِ.

وكما تقول العرب "آخر الدواء الكي" أي أن آخر شيء في العلاج أن تستعمل الكي.

فقد تكون هناك شبهة لا تستطيع حلها، فتتحدث معك بالمناهج الكلامية، والمناقشات الفلسفية، ومقدمات عقلية معينة، وأن هذا برهان عقلي أم لا وتوصلنا معًا لكل شيء، لكنك لم تصل بعد إلى الطمأنينة، أنت فقط قمت بحل مشكلة لكي تستطيع الوصول إلى الطمأنينة.

★ لن تصل إلى حالة الطمأنينة، وتتخلص من حالة الشكوك، والدوران العقلي الفلسفي الذي تُحدثه تلك النقاشات العقلية بعيدًا عن الوحي، فلن تصل إلى الطمأنينة إلا بالوحي، محال.

فعلًا كلما قرأ الإنسان في كتب علم الكلام، أو كتب الفلسفة، ثم عاد إلى الوحي، ركعة واحدة؛ بسورة من كتاب الله، أن تصلي مثلًا بالرعد أو بالأنعام أو بفاطر، فلن تجد مثل القرآن.

سبحان الله! هو الذي خلقك -سبحانه وتعالى- وهو الذي تكلم بهذا الكلام؛ فلن تصلح إلا بكلامه -سبحانه وتعالى-

لماذا تبحث عن غيره؟!

{أَلَا بِذِكرِ ٱللَّهِ} فقط {تَطمَئِنُّ ٱلقُلُوبُ}.

أيها الباحثون عن الطمأنينة في العقائد لن تجدوها إلا في القرآن قطعًا.

كثير من قصص الذين ساروا في الناقشات الكلامية الجدالية الفلسفية، وصل إلى حالة من الشك كاد أن يضيع فيها، كاد أن يصل إلى {فَتَخطَفُهُ ٱلطَّيرُ أَو تَهوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَان سَحِيق}[الحج:٣١]

ثم عاد وندم في آخر عمره، كثير من القصص.

فلماذا نضيع أعمارنا في غير كتاب الله -سبحانه وتعالى-؟!

لماذا لا نصدق أن اليقين والطمأنينة في كتاب الله -سبحانه وتعالى-؟!

القرآن يخاطبك؛ وهذا أوضحته بالتفصيل في درس مميزات الخطاب القرآني وطريقته في تقرير العقائد، وأرجو أن ترجعوا إليه.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥٦٨٠ • [صحيح]

القرآن مختلف تماما، تراه كيف يسكب الطمأنينة في قلبك؟! يخاطبك كإنسان متكامل المشاعر تحتاج إلى أن تعمل، وليس مجرد حالة من السفر في عالم الأفكار فقط.

يخاطبك كإنسان يحتاج إلى أن يتحرك ويعمل ويبذل وله مشاعر.

{أَلَا بِذِكرِ ٱللَّهِ تَطمَئِنُّ ٱلقُلُوبُ}

هذا الإيمان الذي يأتي من القرآن يكون معه عمل!

هناك إيمان يأتي من التفكير؛ كأن نجلس عشر سنوات نثبت وجود الله من النقاشات، ليس هناك أعمال.

لكن الإيمان القرآني يتبعه عمل {ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ}.

{طُوبَىٰ لَهُم} بشرى لهم –معنىً ووزنًا– {وَحُسنُ مَـَٔابٍ} في ختام حياتهم في الآخرة {وَحُسنُ مَـَٔابٍ}.

● ثم يقول الله –سبحانه وتعالى– {كَذَٰلِكَ أَرسَلنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَد خَلَت مِن قَبلِهَآ أُمَمٞ}[سورة الرعد ٣٠]

{كَذَٰلِكَ} ما معنى كذلك؟

الكاف؛ كاف التشبيه، ذلك؛ اسم إشارة، ماذا يشبه، وبماذا ؟

ابن عاشور وهو تبع للزمخشري يميل إلى مثل هذا التعبير –واستفاض في شرح هذه الفكرة في أول الجزء الثاني في سورة البقرة {وَكَذَٰلِكَ جَعَلنَٰكُم أُمَّةٗ وَسَطٗا} استفاض فيها ابن عاشور ثم بعد ذلك أثناء تفسيره كان يحيل إلي هذا الموضع.

الفكرة المحورية هنا؛ في لفتة بلاغية سريعة أنت عندما تحب أن تشبه شيئًا بشيء؛ مثلا عندك شيء عظيم تبحث له عن شيء مماثل لتشبهه به.

مثلما تريد أن تشبه {أُمَّةٗ وَسَطٗا} بشيء ما، وظللت تبحث في كل الأشياء، ولم تجد مثلها؛ لا يوجد ما هو أجمل منها لتشبهها بها، ولا شيء مثلها لتشبهها بها؛ فشبهتها بنفسها، فلم أجد شيئًا أشبهها به إلا هي.

هذا كلام ابن عاشور وهو يتبع الزمخشري، إلا أن ابن عاشور يمتاز بتفصيل الكلام المجمل الذي يقوله الزمخشري، معنى الكلام؛ أنك ظللت تبحث في كل الأمور من حولك، لتجد شيئًا تشبه به هذا الأمر فلم تجد إلا نفس الشيء.

فمثل هذا الإرسال العظيم أرسلناك إلى أمة؛ أي شبه إرسال النبي -صلى الله عليه وسلم- بنفسه.

لا يوجد ما يشبه به.

رفض ابن عطية هذا المعنى، أو لم يرد عليه، ويرى أن 'كذلك'، طالما أتت فإنها تُحيلُ على شيء سابق، ويكون معنى الآية عنده؛ كما أن الله -سبحانه وتعالى- أرسل أنبياء إلى أقوام من السابقين، وأضل أقوامًا وهدى أقوامًا؛ كذلك أرسلَك.

{إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهدِيٓ إِلَيهِ مَن أَنَابَ}، فالكاف تعود على معنى هذه الآية؛ لأن هذا الأمر ليس بمستغرب؛ إذ قد يحدث للنبي -صلى الله عليه وسلم- أو بعض المؤمنين يصيبه في قلبه حسرة، لماذا لا تسلم قريش كلها؟!

فيرد عليه الله أن هذه هي السنة، هذه هي الحياة، هذا ما حدث من لدن آدم -عليه السلام- إلى يوم القيامة، أن الله يرسل رسلًا وكثير من الناس يُعرض مع وضوح الآيات، ألم تكن آيات كل الأنبياء واضحة؟!

بالطبع كانت واضحة، فلا يعقل أن لا تكون كل آيات الأنبياء بهذا الوضوح، فلا يصيبك حسرة من إعراضهم.

{كَذَٰلِكَ أَرسَلنَٰكَ فِيٓ أُمَّة قَد خَلَت مِن قَبلِهَآ أُمَم}[الرعد٣٠]

كثير من الأمم فعلوا مثلهم، وهم -مع الأسف- يمشون في نفس الطريق؛ الإعراض، والتكذيب، فالموت على الكفر -عياذًا بالله- فدخول النار -عياذًا بالله-

{كَذَٰلِكَ أَرسَلنَٰكَ فِيٓ أُمَّة قَد خَلَت مِن قَبلِهَآ أُمَم}

ما هي وظيفتك؟ ما هي وظيفة النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

ليس اقتراح الآيات، ولا إجابة المقترحات، ولا الإتيان بالآية الحسية، وظيفتك أن تُقدِّم ما معك من وحي، فهو آيتك وهو رسالتك، فاجتمع في القرآن الآية والرسالة.

تكلم أكثر من واحد منهم الشيخ محمد أبو موسى، أومن المعاصرين الشيخ مصطفى البحياوي؛ في أن الكتب السابقة كانت رسالية، أما الآية فكانت مختلفة عن الرسالة، وأنا أحب لفظ الآية بدل لفظ المعجزة، لأن هذا هو اللفظ المستعمل في القرآن والسنة، لكن اللغة الدارجة أن معجزة سيدنا موسى غير الرسالة، كانت التوراة غير المعجزة.

وكذلك سيدنا عيسى كانت له معجزة، وكان له رسالة.

اجتمع مع النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية والرسالة.

له معجزات أخرى، لكن هذه الآية -آية الوحي- كانت آية مخصوصة.

{كَذَٰلِكَ أَرسَلنَٰكَ فِيٓ أُمَّة قَد خَلَت مِن قَبلِهَآ أُمَم} إياك أن تنسى وظيفتك.

أنت كسائر على درب النبي -صلى الله عليه وسلم- ما هي وظيفتك؟ {لِّتَتلُوَا عَلَيهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوحَينَآ إِلَيكَ}

إذًا من لا يعجبه الوحي، لن نستطيع استبداله، لن نستطيع البحث عن شيء آخر، وظيفتنا؛ تلاوة الوحي على الناس {لِّتَتلُوَا عَلَيهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوحَينَآ إِلَيكَ} ولم يقل القرآن؛ فتعظيم الوحي أن ما معك ليس منك، إنما هو بوحي من الله -سبحانه وتعالى- فلن تستطيع أن تُغيِّر فيه.

{لِّتَتلُوَا عَلَيهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوحَينَآ إِلَيكَ}

وبالرغم من هذا، وحالهم [واو الحال] أي وهم مستمرون في الكفر والإعراض {وَيَكفُرُونَ} بمن؟ بمن أراد أن يرحمهم بالوحي.

{قُل بِفَضلِ ٱللَّهِ وَبِرَحمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَليَفرَحُوا} [يونس٥٨]

فالوحي رحمة، ينقذ الإنسان من تيه الضلال و التفكير في صحراء لن يصل فيها إلى شيء.

يستحيل أن يصل الإنسان إلى الحقائق بغير مصدر خارج عنه، يستحيل.

فكرة التفلسف وغيرها أن الإنسان يريد أن يصل إلى الحقائق من نفسه، لا يريد مصدرًا خارجيًا، كيف ستصل؟! أنت ظلوم، جهول، عجول، مليء بالشهوات، كنود.

انظر إلى أوصاف الإنسان في القرآن، كيف ستصل إلى الحقائق؟! كيف ستعرف معنى الخير، ومعنى الحق، ومعنى الجمال، ومعنى العبودية، ومعنى الإله، ...

كيف ستعرف هذه الأمور بدون وحي؟! تيهٌ وضلالٌ.

فأنقذ الله الإنسان بالوحي، رحمه، بدلا من أن يتركه يعيش تائهًا، الإنسان بدون وحي نزل إلى مرتبة الأنعام.

الإنسان بدون وحي يعيش حياة الأنعام –والعياذ بالله–

أسفل سافلين، رحلة السقوط إلى أسفل سافلين مذكورة في القرآن مبثوثة في سور كثيرة، تكلمت عنها في سورة التين، لأن سورة التين بدأت بالأماكن التي نزل فيها الوحي، وأن هذه الأماكن ترفع الإنسان إلى أعلى عليين وتجعله في أحسن تقويم، أي الأماكن التي نزل فيها الوحي والارتباط بالوحي، وكيف أن البعد عن الوحي ينزل بالإنسان إلى أسفل سافلين.

الاطلاع الآن على الأماكن التي فيها حضارات مادية متقدمة، لكنها بعيدة عن الوحي، تجد أنهم يتصرفون كالأنعام، مسألة الفاحشة، وانتشار الزنا، وعدم وجود الزواج –والعياذ بالله– يتعاملون في مسألة الشهوات أخسُّ من الأنعام.

انظر للإنسان حينما يبتعد عن الوحي، يصل إلى مرحلة أنه قد يقتل أباه ليتخلص منه، فلم تعد هناك فائدة له، أصبح معاقا، ماذا أفعل به؟!أصبح حملا ثقيلا عليّ.

ولِمَ أنفق عليه أصلا؟!

قطع ما أمر الله به أن يوصل، بدون وحي، إفساد في الأرض.

فقال الله –سبحانه وتعالى– وهذا سر اختيار اسم {ٱلرَّحۡمَٰنِ}، {لِّتَتۡلُوَا۟ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ}

أعرضوا عن رحمته، أي عن الوحي.

{قلْ} بما أنهم وصلوا لتلك المرحلة من الإعراض؛ اصدع بعقيدتك {فَٱصدَع بِمَا تُؤمَرُ وَأَعرِض عَنِ ٱلمشرِكِينَ}

{قلْ} أي يا محمد -صلى الله عليه وسلم- {هُوَ} -سبحانه وتعالى- {رَبِّي} -وليس فقط هو ربي، وليس فقط أثبت له الربوبية، بل أثبت له التوحيد- {قُل هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} لستُ أثبت الألوهية والتوحيد فقط، بل أثبت ما يترتب على ذلك من أعمال {قُل هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ} لا على شركائكم {وَإِلَيهِ مَتَابِ} توكلت عليه، وأسير في طريقه؛ قد أقع في أخطاء، فأتوب إليه.

{عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيهِ مَتَابِ} إليه توبتي، وإليه مرجعي.

ثم يقول الله -سبحانه وتعالى- {وَلَو أَنَّ قُرءَانا سُيِّرَت بِهِ ٱلجِبَالُ أَو قُطِّعَت بِهِ ٱلأَرضُ أَو كُلِّمَ بِهِ ٱلموتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلأَمرُ جَمِيعًا أَفَلَم يَايئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّو يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَو تَحُلُّ قَرِيبا مِّن دَارِهِم حَتَّىٰ يَأتِيَ وَعدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخلِفُ ٱلمِيعَادَ}[الرعد ٣١]

{ وَلَو أَنَّ قُرءَانا سُيِّرَت بِهِ ٱلجِبَالُ أَو قُطِّعَت بِهِ ٱلأَرضُ أَو كُلِّمَ بِهِ ٱلموتَىٰ} الجواب محذوف، فتسكت هنا لأن الجواب محذوف.

{وَلَو أَنَّ قُرءَانا سُيِّرَت بِهِ ٱلجِبَالُ} نلاحظ أن معنى الوحي منتشر في سورة الرعد؛ فقد بدأت السورة بإعراض الناس عن الوحي، ثم صفات مُنزل الوحي، ثم بعد ذلك من آمنوا بالوحي ومن أعرضوا عنه، ثم بعد ذلك رفض الكفار لهذا الوحي، ثم بعد ذلك يبين الله -سبحانه وتعالى- أن هناك أناسًا رضوا بهذا الوحي آية ورسالة واطمأنت قلوبهم به.

ثم يقول الله -سبحانه وتعالى- إلى الباحثين عن الطمأنينة -أي الاستقرار والهدوء-.

لذلك من الممكن أن نفسر آية {وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ ٱللَّهِ} -وهذا من إعجاز القرآن وما فيه من ثراء المعاني- فإذا فسرناها حسب السياق، فأنا أميل هنا إلى أن ذكر الله معناها القرآن.

لكن إذا أخذنا الآية كشعار بعيدًا عن السياق {ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكرِ ٱللَّهِ تَطمَئِنُّ ٱلقُلُوبُ} [الرعد ٢٨]

أن قلب الإنسان اسمه قلب فهو يتقلب، ومن طبيعة الإنسان أنه ملول، ضجر، هلوع، يفزع، ومع كثرة التقلبات يزداد الإنسان فزعًا وهلعًا.

حين يذكر الله –سبحانه وتعالى– وهو حيٌّ، قيومٌ، لطيفٌ بعباده، فيطمئن الإنسان.

فمن الممكن أن نشرح الآية شرحًا إيمانيًا بعيدًا عن السياق، وهذا أيضًا معتبرًا وليس من تحريف الآية، بل ذكره كثير من السلف.

{بِذِكرِ اللَّهِ} قيل ذكر رحمته، وذكر عقابه، وذكر لطفه، حين نتذكر هذه الأمور.

وهناك خطبة اسمها الطمأنينة بذكر الله تشرح هذه الآية شرحًا بعيدًا عن السياق.

لكن تعالوا لنعود مرة أخرى إلى السياق؛ أن هناك أناسٌ رضوا بهذه الآية، رضوا بالوحي.

{ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكرِ ٱللَّهِ تَطمَئِنُّ ٱلقُلُوبُ} رضينا بالقرآن آية، لا نبحث عن غيرها.

وهناك أناسٌ رفضوا القرآن، لماذا رفضوا القرآن؟! تقرأ عليهم القرآن فيرفضوه، فلماذا يرفضوه؟!

يقول: "لستُ مقتنعًا بالقرآن".

فقال ربنا –سبحانه وتعالى– {وَلَو أَنَّ قُرءَانا سُيِّرَت بِهِ ٱلجِبَالُ أَو قُطِّعَت بِهِ ٱلأَرضُ أَو كُلِّمَ بِهِ ٱلموتَىٰ}

يقول العلماء هنا أكثر من ثلاث أو أربع أقوال في البحث عن جواب لو المحذوف؛ وهذا أيضًا من ثراء معاني القرآن.

قلنا إن معنى الآية واحدٌ من اثنين؛ إما يفيد عظمة القرآن، وإما يفيد شدة الإعجاب.

لو أفاد عظمة القرآن فيكون ملخص المعنى {وَلَو أَنَّ قُرءَانا سُيِّرَت بِهِ ٱلجِبَالُ أَو قُطِّعَت بِهِ ٱلأَرضُ أَو كُلِّمَ بِهِ ٱلموتَىٰ}

المحذوف [لكان هذا القرآن] لكن الله لم يفعل ذلك، لماذا؟! {بَل لِّلَّهِ ٱلأَمرُ جَمِيعًا}

لماذا لم يفعل الله ذلك؟! لأن الله لا يريد أن يكون الإيمان إجبارًا.

فرؤية الآية الحسية تضعك أمام مفرق طرق، فإما أن تؤمن أو ينزل عليك العذاب. وهذا ما كان يحدث مع الأمم السابقة، فأول ما تظهر الآية الحسية؛ إما أن يؤمنوا أو يعجل لهم العذاب.

لكن عندما تكون الآية كلامًا، تفكر فيه، يعتمل في عقلك، ونفسك، وروحك، وتتفاعل معه، فهناك فرصة لئلا يعجل لك العذاب، فيكون هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني قالوا إن هذا ليس بجواب [لو]،

فالمعنى: [ولو أعطاهم الله كل آية، بل لو كان القرآن الذي معهم يقطع الأرض ويسير الجبال ويكلم الموتى]؛ ويكون جواب [لو] هو: [لَمَا آمنوا]

جواب [لو] على المعنى الأول: [لكان هذا القرآن] وعلى المعنى الثاني: [لَمَا آمنوا]، فتكتب الآية وتكتب المعنيين بجوارها.

ويكون معناها على المعنى الثاني: لا تضيعوا أوقاتكم معهم، فهؤلاء لن يؤمنوا مهما رأوا.

لذلك قالوا إن هذه الآية بمعنى آية سورة الأنعام {وَلَو أَنَّنَا نَزَّلنَآ إِلَيهِمُ ٱلمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلمَوتَىٰ وَحَشَرنَا عَلَيهِم كُلَّ شَيءٖ قُبُلا مَّا كَانُوا لِيُؤمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكثَرَهُم يَجهَلُونَ}[سورة الأنعام ١١١]

كما ربطها بعضهم بكلمة [وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال...]

صيغة المضارع {يكفرون} أي وهم مستمرون على الكفر بالرحمن ولو أن الله أنزل لهم قرآنًا حرك بالقرآن الجبال والأرض وكلم الموتى؛ أي سيستمرون أيضا على الكفر.

هؤلاء الناس لا يبحثون عن الإيمان، فلا تنشغل بالآية والإقناع، هؤلاء الناس لا يبحثون عن الإيمان، وإنما يريدون اتباع الشهوات.

{وَفَرِحُوا بِٱلحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا}

فأنت تعتقد أن مشكلتهم في الآية والوضوح والبرهان، هذه ليست مشكلتهم، فمهما كان الأمر واضحًا لن يؤمنوا.

وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال... بعضهم ربطها بها.

{وَلَو أَنَّ قُرءَانا سُيِّرَت بِهِ ٱلجِبَالُ أَو قُطِّعَت بِهِ ٱلأَرضُ أَو كُلِّمَ بِهِ ٱلموتَىٰ}

قال بعض العلماء: لماذا خُصَّت هذه الأمور؟! لماذا تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى؟!

أجاب بعضهم؛ أن هناك آثارًا أن هذا كان طلب المشركين من رسول الله –صلى الله عليه–، أي أنهم ذهبوا للنبي –صلى الله عليه وسلم– وقالوا أنزل علينا قرآنًا يحرك الجبال بعيدًا عنا.

فهم يشعرون أن مكة محاطةٌ بالجبال، ويريدون أن يبعدوا الجبال، لتصبح أرضًا مثلًا زراعية أو ليتحركوا فيها كيفما شاءوا بسهولة.

وقطِّع لنا الأرض أي قرِّب، فتقطيع الأرض هنا بمعنى تقريب المسافات، أو تقطيع الأرض أي: قرب المسافة بيننا وبين الشام للتجارة، وأحيي لنا أجدادنا الذين كانوا يتفاخرون بهم.

لذلك بعض المعاصرين حاول أن يحلل هذه الطلبات، وجدها كلها طلبات مادية.

أي أنهم حينما طلبوا آية؛ طلبوا آية لتحل لهم مشاكل مادية، هم لا تَشغَلهم الآخرة نهائيًا :

- يبعد الجبال لتصبح مكة مدينة اقتصادية واسعة، مثل دبي مثلًا.
- وتقطع الأرض لتسهيل وسيلة المواصلات في التحركات.
- وإحياء من كانوا يفتخرون بهم بالأنساب والأجداد مثل قصي وغيره.

قال بعضهم لا، هذا على قول أنهم طلبوا آية.

- المعنى الأول: حتى لو جئنا لهم بالآية لم يكونوا ليؤمنوا.
- المعنى الثاني: وهو يتناسب مع معنى عظمة القرآن، قال بعض أهل العلم: "إن القرآن أقوى في تأثيره من كل آيات الأنبياء السابقين" والآيات المذكورة هنا إشارة لآيات الأنبياء السابقين.

{سُيِّرَت بِهِ ٱلجِبَالُ} ما حدث مع جبل الطور مع موسى -عليه السلام- حينما رفع الله -سبحانه وتعالى- الجبل {وَإِذ نَتَقنَا ٱلجَبَلَ فَوقَهُم كَأَنَّهُۥ ظُلَّة}

{قُطِّعَت بِهِ ٱلأَرضُ} وتقطيع الأرض كما حدث في شق البحر.

{أَو كُلِّمَ بِهِ ٱلموتَىٰ} وتكليم الموتى كما حدث مع عيسى عليه السلام.

فكانت هذه الآيات العظام للسابقين، وفي القرآن تأثير أقوى من هذه الآيات!

فيصبح معنى تقطيع الأرض على المعنى الاول: تقصير المسافات وعلى المعنى الثاني: شق البحر.

ويصبح على المعنى الثاني أن تأثير آية النبي -عليه الصلاة والسلام- وهو الوحي؛ أعظم من أي آية سابقة.

قد يقول أحدهم: ألا تشعر أن هذا الاستنباط فيه جزء من المبالغة؟! وقد ذكره أكثر من مفسر: أن هذه المعاني الثلاث؛ تكليم الموتى وتقطيع الأرض وتسيير الجبال، إشارة لآيات السابقين، فبالتالي أنت تستنبط أن تأثير القرآن أعظم من آيات السابقين؟!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري -وهذا الحديث يحتاج وحده إلى محاضرة كاملة- عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رسُولَ اللَّه -صلى الله عليه وسلم- قالَ: (مَا مِنَ الأنبياءِ مِنْ نبيٍّ إلا قدْ أعْطِيَ مِنَ الآيَات مَا مثْلهُ آمَنَ عَلَيْه البشَرُ، وَإِنَّما كَانَ الذي أوتيته وَحْيًا أوْحَاه الله إلَيَّ، فأرجُو أنْ أكُونَ أكْثَرَهُمْ تَابعًا يَوْمَ القيامَة)[٧].

(مَا منَ الأنبياءِ مِّنْ نبيّ) صيغة حصر، أي كل الأنبياء.

أي أن الله قسَّم عليهم الآيات؛ ما هو دور الآية؟ أن يصدقه الناس، الآية تدل على أنه نبي، فبعد أن يتبين صدقه، يأتيهم بالرسالة أو يؤكد رسالة السابقين.

[٧] [عن أبي هريرة:] ما مِنَ الأنْبِياءِ مِن نَبِيٍّ إلّا قدْ أُعْطِيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كانَ الذي أُوتِيتُ وحْيًا أوْحى اللَّهُ إلَيَّ، فأرْجُو أنْ أكُونَ أكْثَرَهُمْ تابِعًا يَومَ القِيامَةِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٥٢ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢) واللفظ له

لأنه ليس شرطا للنبي أن يأتي برسالة، فقد يأتي ليؤكد رسالة السابقين -لو أخذنا باعتبار الفارق بين النبي والرسول-.

ما دور الآيات؟ (إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر)

ما : هنا موصولة مفعول أعطي، أي أعطاه الله الآية التي بسببها يؤمن البشر.

بمعنى أن آيات الأنبياء كان فيها نوع من التماثل كلها حتى لو كانت هناك آية أعظم، لكن يبقى التماثل في التأثير، أي في الأثر بمعنى أن تثبت صدقه.

(مَا مِّنَ الأنبياءِّ مِّنْ نبِيّ إلاَّ قدْ أعْطِّيَ مِّنَ الآيَاتِّ مَا مِّثْلهُ) ما: موصولة، مثله: إعرابها مبتدأ

(مثله آمن) كان متوقع أن يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- "آمن به البشر" أي بسببه البشر لماذا جاءت عليه؟! (ما آمن عليه)؟!

قيل: لأن النبي يأتي بآية تجبر الإنسان (على) فيها استعلاء، فهي تجبر الإنسان حين يرى آية النبي إما أن يؤمن وإما أن يجحد. {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل:١٤]

(مَا منَ الأنْبياء منْ نبِيّ إلا قدْ أعْطيَ منَ الآيَات مَا مثْلهُ آمن عليه البشر)

كل هذه مقدمة لأقول المعنى الذي قلت إنه مستنبط من الآية وقلتَ لي: أليس فيه من المبالغة شيء؟!

قلت لك أن هناك حديث صريح في البخاري: (مَا منَ الأنبياء منْ نبِيّ إلا قدْ أعْطيَ منَ الآيَات مَا مثْلهُ آمَنَ عَلَيْه البشَرُ) أي بسببه البشر (وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أوتيته وَحْيًا أَوْحَى الله إِلَيَّ، فأرجُو أنْ أكُونَ أكْثَرَهُمْ تَابعا يَوْمَ القيامَة).

نعم هناك تماثل بين كل الآيات، (وَإِنَّمَا) هنا كأن الرسول صلى الله عليه وسلم يفصل -فكأن الآيات التي جاءت قبل النبي كلها شيء وهذه الآية شيء آخر- ،ف (إنما) أسلوب حصر وقصر يسمونه قصر ادعائي، لكن هنا تأدُّبا مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- فلن نقول ادعائي، لأن النبي كانت له معجزات أخرى، (وإنَّما كان الذي أوتيته) أي آية النبي -صلى الله عليه وسلم- مختلفة تمامًا؛ فما هو؟! وحي!!

لماذا لم يقل وحيًا وينتهي الأمر؟! إنما قال: (وَحْيًا أَوْحَاه اللهُ إِلَيَّ)

أي من الله، فماذا سيترتب على أن آية النبي -صلى الله عليه وسلم- مختلفة عن البقية؟! سيترتب عليه كثير من الأمور.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان له آيات حسية كثيرة، لأن بعض الناس سيأخذ هذا الحديث، وينكر الآيات الحسية.

وهؤلاء غلب عليهم الطبع، قد تكون عندهم هزيمة، فيريد أن ينكر الآيات الحسية، فيأخذ مثل هذه الأحاديث والآيات.

ودلائل نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- عظيمة كثيرة كُتب فيها مؤلفات ومجلدات.

لذلك قال العلماء هنا أن أسلوب القصر ليس قصرًا حقيقيًا؛ بمعنى أن أعظم آية كانت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- (وَإِنَّمَا كَانَ الذي أوتيته وَحْيًا أَوْحَاه اللهُ إِلَيَّ)، فبالتالي ما هي نتيجة إن آية النبي -صلى الله عليه وسلم- مختلفة عن أي آية سابقة؟!

(فأرجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القيامَة).

فأرجُو: من الرجوى وهي الأمنية!

فنتيجة اختلاف الآيات، (أرجُو أَنْ أَكُونَ) أي النبي -صلى الله عليه وسلم- (أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القيامَة)، أي أكثر تأثيرًا.

لماذا يكون الوحي أكثر تأثيرًا؟! هنا مجلدات، هنا البحث عن المختلف في القرآن، ليكون أكثر تأثيرًا.

هنا أبدعت عقول العلماء، ارجع مثلًا لشرح هذا الحديث لابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري.

أو من أجمل الشراح المعاصرين الذين شرحوا هذا الحديث دكتور محمد أبو موسى في كتابه شرح أحاديث من صحيح البخاري، انتقى أحاديثًا معينة -ليست كثيرة- انتقى منهم هذا الحديث وأبدع في شرحه.

انظر لهذا الحديث وكيف يتحدث العلماء عن شدة غفلتنا عن الوحي!

كيف يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- إن أعظم آية هي آية الوحي ونحن عنها معرضون!

{وَلَو أَنَّ قُرءَانا سُيِّرَت بِهِ ٱلجِبَالُ أَو قُطِّعَت بِهِ ٱلأَرضُ أَو كُلِّمَ بِهِ ٱلموتَىٰ } لكن الله لم يشأ ذلك، لماذا؟! {بَل لِّلَّهِ ٱلأَمرُ جَمِيعًا}.

ثم يقول الله -سبحانه وتعالى- مخاطبا أهل الإيمان الذين لا زالوا في حزن على كفر المشركين، ويعتقد المؤمنون أن سبب كفرهم عدم وضوح الآيات؛ فيقول الله لهم ألم يئن الأوان أن يتبين لكم أنَّ إعراضهم إعراض جحود، وليس إعراض عدم وضوح آياته؟

{أَفَلَم يَايئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّو يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَو تَحُلُّ قَرِيبا مِّن دَارِهِم حَتَّىٰٓ يَأتِيَ وَعدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخلِفُ ٱلمِيعَادَ}

جماهير المفسرين قالوا {يَيْأس} هنا بمعنى يعلم، وسأذكر لِمَ؟!

أي: أفلم يعلم، ويتبين الذين آمنوا {أَن لَّو يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعا}

لو كان الموضوع إجبارًا، لو أراد ربنا أن يجبر الناس كلها على الإيمان، لكن ربنا لا يريد ذلك.

{يَيْأس} لماذا جاءت بمعنى يعلم هنا؟

إما لغة من لغات العرب، وهذا ورد عن بعض المفسرين

أو تأتي بمعنى يعلم حين تعلم الشيء علمًا يقينيًا، تيأس من علم غيره؛ أي تيأس أن تتغير المعلومة التي أخذتها.

فمثلًا إذا قلت لك معلومة مثل {وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤمِنَ مِن قَومِكَ إِلَّا مَن قَد ءَامَنَ فَلَا تَبتَئِس بِمَا كَانُوا يَفعَلُونَ}[هود:٣٦]

فتقول في نفسك هل يُعقل هذا؟! لا أحد سيؤمن، هنا يأتي اليأس بمعنى العلم.

عندما تأتيك معلومة لا تستطيع تقبلها، هل حقا لن يؤمن أحد؟! فلنحاول أن نأتي لهم بآية حسية، فقد يؤمنوا، لا لابد وأن تيأس من هذا التفكير.

{أَفَلَم يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا}

لذلك بعض المعربين –وإن كان إعرابًا مرفوضًا ومُعتَرَضًا عليه– قال إن معنى الآية

{أَفَلَم يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا} وتقف هنا.

أي أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان الكفار.

{أَفَتَطمَعُونَ أَن يُؤمِنُوا لَكُم وَقَد كَانَ فَرِيق مِّنهُم يَسمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِن بَعدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُم يَعلَمُونَ} [البقرة ٧٥]

هناك أناس لابد أن تيأس منهم، وإن كان مُعتَرَضًا عليه، حيث قال تكملتها {أَن لَّو يَشَآءُ ٱللَّهُ} هنا حرف محذوف [لأنه لَّو يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعا]

الخلاصة؛ أن ييأس بمعنى يعلم

ومن رحمته –سبحانه وتعالى– أنه لم يكتف بالرسالة فقط، لكن الله كان يضيق عليهم بالابتلاءات حتى يعودوا.

{وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَو تَحُلُّ قَرِيبا مِّن دَارِهِم حَتَّىٰ يَأتِيَ وَعدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخلِفُ ٱلمِيعَادَ}

نختم بهذه الآية ..

{بِمَا صَنَعُوا} أي بسبب ذنوبهم، {قَارِعَةٌ} القرع هو الخبط الذي يعطي صوتًا فيه فزع، قرع الباب؛ الصوت المفزع المفاجئ.

فالقرع فيه صوت عالٍ، وفيه فزع، وفيه مفاجأة، فكانت تأتيهم أمورًا تفزعهم، وفيها نوع مباغتة.

ماهي هذه القارعة؟ ورد عن السلف أنها السرية يبعثها النبي –صلى الله عليه وسلم– لتغزوهم.

{وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ}

القارعة بالمعنى الأول: بمعنى سرية

{أَوْ تَحُلُّ} لو قلنا أن المعنى الأول سرية، فستكون هنا تاء تحل لن تعود على القارعة، بل تعود على خطاب النبي -صلى الله عليه وسلم-،

{أَوْ تَحُلُّ} أنت بنفسك، فتكون غزوة النبي -صلى الله عليه وسلم- يقودها.

أو تحل أنت بنفسك يا محمد -صلى الله عليه وسلم- قريبًا من دارهم أي تغزوهم أنت في عقر دارهم.

{حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ} فتح مكة وقد كان. {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ}

فالمعنى الأول [ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا سرية ترسلها أنت يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو تحل أنت بنفسك قريبًا من دارهم حتى تغزوهم في دارهم في فتح مكة حتى يأتي وعد الله إن الله لايخلف الميعاد]

ومن اختار هذا المعنى قال إن هذه الآية مدنية لأن {وَلَا يَزَالُ} بمعنى المضارع الذي بدأ من الآن ومستمرٌ، فلا يزال الذين كفروا أي في هذه اللحظة كانت تأتيهم السرايا.

وبعضهم قال إن القارعة معنى عام، فلِمَ نخصصها بالسرية؟

إنما هي السرية وغير السرية؛ أصابهم المرض، وأصابهم الابتلاء، وأصابتهم الضراء، وأي قارعة.

{أو تحلُّ} القارعة، وهذا الذي رجحه ابن جُزي وغيره.

وإن كان كثير من السلف قال {تحل} أي أنت يا محمد -صلى الله عليه وسلم- وخالف فقط الحسن البصري وقال {تحل} أي القارعة.

لكن على العكس، وجدت أن كثيرًا من المفسرين اختار {أو تحلُّ} أي القارعة، فآختار أن الآية مكية، وأن القارعة أصابتهم في مكة.

ألم تَقُلْ أن 'لا يزال' معناه مضارع مستمر، وأن منذ هذه اللحظة كان هناك قوارع، بدأت تصيبهم قالوا نعم؛ السبع سنين العجاف التي دعا النبي -صلى الله عليه سلم- (اللهُمَّ اجْعَلْهَا سِّنينَ كَسِنِّي يوسُفَ...)، وقد كان {فَٱرۡتَقِب يَومَ تَأتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَان مُّبِين}[الدخان ١٠] المعنى الأشهر فيها؛ أنه كان الرجل من الجوع في مكة من كفار قريش يصيبه الجوع فينظر إلى السماء كأن بينه وبين السماء غمام، من شدة الجوع، فصرف الله عنهم ذلك.

إذًا كانت القوارع تأتيهم من مكة، ثم تحولت القوارع من قوارع قدرية بتقدير من الله -سبحانه وتعالى- لا يتدخل فيها المسلمون، إلى قوارع قدرية شرعية، يأمر الله -سبحانه وتعالى- المسلمين أن يجاهدوا.

فالقارعة انتقلت من المرض والابتلاء والقحط إلى السرية، ثم الغزوة، ثم فتح مكة {حَتَّىٰٓ يَأتِىَ وَعدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخلِفُ ٱلمِيعَاد} أي سيحقق الله -سبحانه وتعالى- نصر المسلمين، أسأل الله -سبحانه وتعالى- أن ينصرنا على أهل الكفر وأهل الباطل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.